مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 2 2025

الحجاج والشعر في البلاغة العربية القديمة:
دراسة تأصيلية، ونماذج تطبيقية

Argumentation and Poetry in Ancient Arabic Rhetoric:
An Authentic Study and Applied Models

الطالب محمد العمراني: جامعة مولاي إسماعيل، الكلية المتعددة التخصصات الراشدية، المغرب.

Mohammed El-amrani, Moulay Ismail University Multidisciplinary Faculty of Errachidia, Morocco.

Med.elamrani1987@gmail.com

مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 2 2025

الملخص

حظي موضوع الحجاج في البلاغة العربية باهتمام كبير من الدارسين العرب، الذين حاولوا التأكيد على أن البلاغة العربية هي بلاغة إقناعية وإمتاعية في جميع مباحثها ومفاهيمها، وتقوم في كل مباحثها وأساليبها على الوظيفة الإقناعية الحجاجية، والوظيفة الجمالية؛ وهذا ما بدا واضحًا منذ بدايتها الأولى وفي مختلف علومها وفنونها. ويعد الشعر العربي، خصوصًا الشعر القديم، مجالًا خصبًا للحجاج، الذي وظفه الشعراء العرب القدماء في أشعارهم لإقناع مخاطبيهم والتأثير فيهم من خلال آليات وأساليب عديدة، نذكر منها على سبيل المثال: الجناس، الاستعارة، التوكيد، إلخ. مما يعني حضور البعد الحجاجي في كل من البلاغة والشعر العربي.

الكلمات المفتاحية: الشعر، البلاغة، الشعرية العربية، الحجاج، الإقناع.

Abstract:

The topic of argumentation in Arabic rhetoric has received considerable attention from Arab scholars, who have sought to emphasize that Arabic rhetoric is a persuasive and entertaining form of rhetoric in all its aspects and concepts. In all its aspects and methods, it is based on the persuasive and argumentative function, as well as on an aesthetic function. This has been evident from its earliest beginnings and throughout its various sciences and arts.

Arabic poetry, particularly ancient poetry, is a fertile field for argumentation, which ancient Arab poets employed in their poetry to persuade and influence their audiences through numerous mechanisms and techniques, including, for example, alliteration, metaphor, emphasis, etc. This signifies the presence of the argumentative dimension in both ancient Arabic rhetoric and poetry.

Keywords: poetry, rhetoric, Arabic poetics, argumentation, persuasion.

تمهيد

حظي موضوع الحجاج في البلاغة العربية باهتمام كبير من طرف الدارسين العرب، الذين حاولوا التأكيد على أن البلاغة العربية، هي بلاغة إقناعية وإمتاعية في كل مباحثها ومفاهيمها، وتنهض في كل مباحثها وأساليبها على الوظيفة الاقناعية الحجاجية، وعلى الوظيفة الجمالية؛ وهذا ما بدا واضحا منذ بدايتها الأولى وفي مختلف علومها وفنونها.

المقدمة

يعد علم البلاغة من أجل وأعظم العلوم التي حظيت باهتمام العلماء المسلمين على مر العصور باختلاف انتماءاتهم المعرفية والإيديولوجية فهو ملتقى فنون ومعارف عديدة، ومن العلوم الضرورية التي لا غنى عنها لأي باحث في أي حقل معرفي. إنه العلم الذي تقوم وتتأسس عليه باقي العلوم الأخرى وتتداخل وتتكامل معه، كعلم النحو والعروض، والنقد واللغة والكلام والإعجاز. مما ساهم في اتساع مساحة الدرس البلاغي، لهذا يرى أبو هلال العسكري: "أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز وكتاب الله بالحق" (العسكري، ١٩٨٨، صفحة ٧)، ثم قال عنها القرطاجني: "وكيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاذ الأعمار" (القرطاجني، ٢٠٠٧، صفحة ٨٨) مصطلح مراوغ زئبقي يصعب القبض عليه، إلا من خلال ربطة بفترة زمنية محددة، أو عند مدرسة معينة. لهذا كان مفهومها مختلفا زمانيا ومكانيا، "فهي مفهوم تاريخي يتغير بحسب الثقافات والحقب: فمفهومها عند الجاحظ وابن سنان الخفاجي مثلا، يختلف عن مفهومها عند عبد القاهر الجرجاني والسكاكي، ومفهومها عند كل هؤلاء (أي إلى حدود

القرن السادس الهجري) بعيد عن مفهومها عند صلاح الصفدي وابن حُجّة، وغيرهم من بلاغيي العصور المتأخرة" (العمري، ٢٠١٠، صفحة ١٩) وهذه المفاهيم تختلف عن مفهوم البلاغة في الثقافة الغربية.

لهذا، وحتى يزال كل لبس وغموض، ولنؤسس لأرضية مشتركة بيننا ينبغي أن نتفق بداية على أن البلاغة جمعت في مباحثها بين التخييل والتداول، وتشمل على كل ما ينتج من نشاط إبداعي، سواء أكان تخييليا كما هو الأمر في الشعر وما يجاوره من الأجناس الأدبية التي تسعى إلى استثمار اللغة بكل طاقاتها الفنية والجمالية، أم كان إقناعيا سواء تعلق الأمر بالخطابة، أو بالجدل، أو بكل أصناف القول، التي تسعى إلى التأثير على المتلقي وإذعانه لإنشاء أو تثبيت أو تغيير اعتقاد ما عنده.

المبحث الأول: تعريف الحجاج

تعددت واختلفت تعريفات الحجاج باختلاف المرجعيات والمدارس الفكرية التي تناولته، وهنا سنقتصر تمثيلا على تعريف طه عبد الرحمان للحجاج بأنه "فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة علمية إنشاءً موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي، لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة" (طه عبد الرحمان، ٢٠٠٧، صفحة ٦٥). أي أن الحجاج خطاب يتأسس على عنصري التداولي والجدلي، ويقوم على دراسة للتقنيات الخطابية التي توصل إلى إقناع المتلقي وإفهامه، عبر مجموعة من الآليات والتقنيات والأساليب.

المبحث الثاني: أصالة الحجاج في البلاغة العربية

الحجاج مصطلح قديم، ضاربة جذوره في عمق الحضارة الإنسانية، فمنذ أن ظهر الإنسان وهو يمارس فعل الحجاج. والمتأمل في تراثنا الفكري والثقافي عموما، والبلاغي خصوصا، سيجد أن العلوم العربية بمختلف تخصصاتها، مرت بمرحلتين مهمتين في تاريخ التراث العربي، وهما: مرحلة المشافهة ثم مرحلة التدوين.

والحجاج، كوعي وممارسة وآلية تواصلية كان حاضرا عند العرب، فرضته واقتضته السياقات السياسية والقبلية والنقدية والأدبية منذ الجاهلية، مما يعني أن البلاغة ارتبطت جذورها بما هو خطابي وشعري منذ بداياتها الأولى.

ثم قوي حضوره أكثر، وزادت الحاجة إليه مع مجيء الإسلام وما نتج عنه من تحولات بنيوية في الفكر العربي واحتدام الصراع بين المسلمين والمشركين، بدءا بالقرآن الكريم، الذي يمكن اعتباره كتابا حجاجيا بامتياز، لهذا ورد ذكر الحجاج في آيات ومواضع عديدة في القرآن الكريم، ثم تطور أكثر في العصرين الأموي والعباسي بسبب الصراعات التي عرفتها الأمة الإسلامية داخليا وخارجيا، خصوصا مع ظهور الفرق الكلامية والمدارس الفقهية والأحزاب السياسية المتصارعة التي وظفت الشعر والخطابة في خصوماتها، فكانت كل مدرسة وفرقة تعلم المنتسبين إليها أساليب الإقناع وتقنيات التأثير في الخصوم، فأصبح وسيلة ضرورية للدفاع. هذا ما نجده واضحا في صحيفة المعتزلي بشر بن المعتمر "الذي كان شيخا من شيوخ المعتزلة عاش الشطر الأول من حياته في القرن الثاني الهجري، فعاشر طبقة اللغويين والنحاة من العلماء بالشعر كأبي عبيدة والأصمعي وعددا كبيرا من كبار الشعراء المحدثين كأبي نواس ومسلم بن الوليد. وقد تضمنت صحيفته توجهات إلى

الخطباء والمتكلمين للتأثير في خصومهم. ركزت على الجانب البلاغي المؤثر في الحجاج والمحاورة، وفيها يتحدث عن المتكلم وما ينبغي أن يتوفر له من حسن الاستعداد للكلام وما ينبغي أن يتوفر لكلامه من الجمال والإمتاع، وما ينبغي أن يسود من الملاءمة التامة بين الألفاظ والمعاني وبين الكلام وطبقات السامعين" (شوقي ضيف، ١٩٦٥، صفحة ٣٦٩). لكن التأليف فيه والتنظير له، بدأ مع مرحلة التدوين والتقعيد للعلوم عند العرب، خصوصا بعدما اشتدت الحاجة إلى التقعيد والاحتجاج، وكثرة الشبهات تجاه الدين الجديد، يقول ابن خلدون: "وأما الجدال وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، احتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب.. ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه، سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره" (ابن خلدون، ٢٠٠٩، صفحة ٥٠١) مما يعني، أن الحجاج كان مبحثا موجودا عند المسلمين، تقاسمته حقول معرفية عديدة، خصوصا العلوم الشرعية، حيث اشتدت الحاجة إليه، خصوصا عند المذاهب والفرق الفقهية والفكرية، مما دفع العلماء إلى التأليف فيه.

وبالتالي فإن حديثنا عن الحجاج، ينبغي أن يقوم على التمييز بين مستويين اثنين:

✓ الحجاج كممارسة: حيث تميز عرب الجاهلية بالفصاحة والبيان، والريادة في القول والكلام والذوق الرفيع، عن طبع وسليقة وسجية، من غير تصنع ولا تكلف، فقد كانوا أهل فصاحة وبلاغة في كل أمور حياتهم، واحتل الشعر مكانة ومنزلة عظيمة. يتجلى ذلك في الأسواق الأدبية التي كانت في بلاد العرب، التي ساهمت بشكل كبير في صناعة الحجاج. من خلال الحكم والفصل بين الشعراء والمفاضلة بينهم، وتقويم القصائد، نذكر على سبيل المثال احتكام الشعراء إلى النابغة

الذبياني خصوصا، قصة الأعشى وحسان والخنساء، واختلاف النقاد حول أشعر الشعراء أو أجود بيت شعر، وحيثما تكون الاختلافات فإنه توجب على المختلفين التوسل بأدوات وآليات الحجاج والإقناع للدفاع عن رأيهم وموقفهم النقدي. كما لا ننس النزعات القبلية وما تتطلبه من قوة الدفاع والتمكن من آليات الحجاج.

ثم، بعد مجيء الإسلام اصطدمت قوة بلاغة العرب في بعديها الحجاجي والجمالي ببلاغة أعلى أقوى وأعظم منها، ببلاغة القرآن الذي حاجهم الله تعالى وتحداهم على الإتيان بمثله ثم بآية واحدة مثله، فعجزوا في هذه المقارعة الحجاجية. لكن مع ذلك، فالقرآن الكريم، تضمن آيات عديدة، تدل صراحة على قوتهم البلاغية وسلطتهم الحجاجية، وعلى أن القوم، كانت لهم معارضة قوية ومقارعة شديدة، ورد الحجة بالحجة.

ثم مع توالي الفتوحات الإسلامية، واتساع رقعة الدولة، واختلاط العرب مع غيرهم من الأقوام الأخرى، وتصاعد حملات المشككين في عربية القرآن وإعجازه، أصبحت الحاجة ماسة إلى الحجاج والتمكن من آلياته، لدحض تلك الدعاوى الباطلة والمغرضة ضد القرآن واللغة العربية وعلومها، فظهرت بذلك مدارس متنوعة اختلفت مفاهيمها ومرجعياتها المعرفية، لكنها تتفق على أهمية الحجاج: كمدرسة علماء الكلام، وما كان بين المعتزلة والأشاعرة من اختلافات، والنقاد أنصار القديم وأنصار المحدَث، والنحويين والبلاغيين والمفسرين.

✓ الحجاج كنظرية عند العرب (التنظير للحجاج): لقد كان الحجاج في الثقافة العربية باعتباره حقلا معرفيا، يندرج ضمن حقول وتخصصات معرفية؛ عديدة كالعلوم الدينية من فقه وتفسير وعقيدة، وعلوم لغوية كالنحو والنقد، وفكرية كعلم الكلام، بالإضافة إلى حقل الدراسات البلاغية، مما يجعل

من مسألة الفصل بين الحجاج والبلاغة أمرا لا يستقيم، وهذا يعني، أن بلاغتنا كانت منذ بدايتها الأولى تجمع بين الإمتاع والإقناع، فكل منهما يكمل الآخر، هذا الاتصال الكبير بينهما هو ما جعل أغلب المؤلفات البلاغية تسير في منحى تأكيد هده العلاقة بينهما،

ولعل من أهم ما نستدل به على حضور الحجاج في البلاغة العربية، هو تأكيد الجاحظ علاقة التداخل والتواشج بين البلاغة والحجاج في مواضع كثيرة، منها:

تعريفه للبيان بأنه هو "اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجاب دون ضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم علة محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، من أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم الإفهام، و أوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع" (الجاحظ، ٢٠٠٣، صفحة : ٥٦).

بناء على هذا التعريف، نستنتج أن عملية الحجاج عند الجاحظ تقوم على عناصر أساسية يجمع بينها مقصد التأثير في سلوك المخاطب واقناعه، وهي:

القائل: أي المخاطِب

السامع: أي المتلقي/ المخاطب

كل شيء كشف القناع: ويقابل الرسالة/ القول

الدليل على المعاني من لفظ أو غير لفظ: ويقابل الوسيلة أو تقنية التواصل وآلته

الغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم الإفهام: بمعنى الغاية والمقصد من العملية الحجاجية الذي هو الاقناع والتأثير، بمعنى أن الحجاج يقوم على قصدية التأثير في سلوك المخاطب وإقناعه بتغيير أو تعديل فكرة ما.

ويحسب للجاحظ فضل إخراج الحجاج من دائرته الضيقة التي تعتمد على المنطوق فقط، فجعل: "جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة" (الجاحظ، ٢٠٠٣، صفحة ٧٦). فالحجاج حسب الجاحظ لا يكون بالمنطوق فقط، بل يكون بالكتابة أيضا إذا كان المخاطب متعلما وهو ما أطلق عليه الخط، أو يكون بالإشارة والإماءة، وقد يكون بالعقد أو الحال الناطقة بالدلالة التي سماها النصبة الناتجة عن التدبر والتفكر.

كمثال آخر، تقديم الجاحظ رأيا لابن المقفع حول تصوره للبلاغة، يقول الجاحظ: "يقول ابن اسحاق بن حسان بن قوهيّ: لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط. سئل ما البلاغة؟ البلاغة: اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل" (الجاحظ، ٢٠٠٣، صفحة ١١٥)

وسيرا على مشروع الجاحظ البياني، نجد ابن وهب الكاتب الذي انطلاقا من قاعدة لكل مقام مقال واشترط على المحاج: "أن يكون عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين به، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة، فيقصر عن بلوغ الإرادة، ولا الإطالة في موضع الإيجاز فيتجاوز في مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة، ولا يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة، ولا كلام الملوك مع السوقة، بل يعطي كل قوم من القول بمقدارهم ويزنهم بوزنهم" (ابن وهب الكاتب، ١٩٦٩، صفحة ١٩٤).

ثم قسم الحجاج إلى:

- ✓ حجاج محمود: وهو المقصود به الحق، ويستعمل في الصدق.
- ✓ حجاج مذموم: وهو المقصود به المماراة والرياء والسمعة، والانتصار للباطل على الحق.

وتتخذ الحجة مستويين، بحسب مقام الحجاج:

- ✓ أن يطلبها المتلقي وهو جاهل بها ليعرفها.
- ✓ أن يطلبها المتلقي وهو عالم بها، ليتم له القرار بها.

ومن أجل عملية حجاجية ناجحة، وضع مجموعة من النصائح على المحاج الالتزام به، منها:

- أن يكون الهدف الأساسي للمحاج، هو الحق والصواب؛ وأن لا يعجب برأيه، أو يلجأ إلى الكذب والتمويهات والمغالطات؛
- عدم الاحتجاج للشيء وضده؛
- عدم التكبر على من يحاجج،
- أن يبتعد المحاجج عن الهوى إذا أراد تحقيق الحق؛
- ألا يقبل على الحجاج حتى يكون مستعدا له نفسيا وذهنيا ومعرفيا..
- التمكن من العلوم والمعارف، خصوصا ما له علاقة بموضوع المحاجة
- احترام الخصم، وعدم الاستهانة به والتقليل من شأنه..
- التدبر والتمعن فيما سيقدمه من إجابة، وعدم التسرع.

كمثال آخر على ما أشرنا إليه، يقول القرطاجني متحدثا عن الحجاج البلاغي: "فكذلك في الشعراء أيضا من يجعل أكثر أبياته وما تتضمنه الفصول بالجملة مخيلة ولا يستعمل الإقناع إلا في القليل

منها، ومنهم من يستعمل الإقناع في كثير من الأبيات التي تضمنها فصول القصيدة. وقد كان أبو الطيب يعتمد هذا كثيرا ويحسن وضع البيت الإقناعي من الأبيات المخيلة لأنه كان يصدِّر بالأبيات المخيِّلة ثم يختمها ببيت إقناعي يعضد به ما قدّم من التخييل ويجمُّ النفوس لاستقبال الأبيات المخيّلة في الفصل التالي، فكان لكلامه أحسن موقع في النفوس بذلك، ويجب أن يعتمد مذهب أبي الطيب في ذلك فإنه حسن" (القرطاجني، ٢٠٠٧، صفحة ٢٥).

يتبين جليا من هذا القول، أن القرطاجني يفضل المتنبي على غيره من الشعراء لقدرته على التوليف والجمع بين الإمتاع/ التخييل والإقناع / الحجاج في كتاباته الشعرية، حيث يفتتح قصائده الشعرية بالأبيات المخيلة إعدادا وتهيئة للمتلقي وتطريبا لنفسه، وإثارة لانتباهه ومشاعره، ثم يتبعها بأبيات فيها من الحجاج ما يدافع به عن تخيلاته ويعضدها مما يمكنه من استمالة مخاطبه والتمكن منه، فأشعار المتنبي تجمع بين مخاطبة القلب والعقل معا، مما يعني أن هناك تداخلا وظيفيا بين الشعري والخطابي لكن مع مراعاة خصوصية كل منهما.

بناء على ما سبق، نقول بكل يقين، أن الحجاج مثل غيره من العلوم العربية، كان عربي المنبث، ممارسة وتأليفا استجابة لشروط موضوعية مرتبطة بالثقافة العربية قبل وبعد الإسلام، وليس مستوردا من ثقافة وحضارة أخرى يونانية كانت أو غيرها.

هذا التأكيد على حضور الحجاج في البلاغة العربية، نجده كذلك مع العديد من البلاغيين العرب المعاصرين، نذكر على سبيل المثال محمد العمري، الذي يؤكد على أن البلاغة العربية، هي دراسة للخطاب في بعديه التخييلي، والحجاجي التداولي، والبحث البلاغي القديم يشملهما معا، "حيث يلتقي كل من التخييل والتداول في أنهما خطابان قائمان على الاحتمال، توهيما أو ترجيحا، التوهيم في

التخييل، والترجيح في التداول الحجاجي" أي أن البلاغة العربية تميزت بمسارين كبيرين: مسار البديع الذي يغذيه الشعر، ومسار البيان الذي تغذيه الخطابة، ونظرا للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي فقد ظل المسارين متداخلين وملتبسين" (العمري، ٢٠١٢، صفحة ١٥)

كما أشار كذلك أن كلمة "إنشاء" بمعناها الأول لدى المتقدمين، تكاد تعبر عن كل خطاب يحمل جهدا تخييليا أو حجاجيا، أي الخطاب الذي فيه صنعة قصدية للتأثير والإقناع، مما يعني امتزاج وتكامل وتداخل الغاية التخييلية الفنية بالغاية التواصلية التداولية.

بتعبير أوضح، فللبلاغة وجهان: وجه تخييلي يشمل الخطابات التخييلية من شعر وسرد وغيرهما، ووجه حجاجي تداولي، من هنا حصل التداخل بين التخييلي والحجاجي في مفهوم البلاغة نفسها، الذي استخدم بمعاني ودلالات مختلفة عند البلاغيين القدماء، أجملها محمد العمري في محاور ثلاثة، وهي:

- المحور الإخباري المعرفي التعليمي: أي إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الفهم.
- المحور التأثيري: بتقديم الأمر على وجب الاستمالة وجلب القلوب.
- المحور الحجاجي: وهي إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار.

فالمحور التأثيري يرتبط بالتخييل، والمحوران الإخباري والحجاجي يرتبطان بالتداول والتواصل، الأمر الذي جعل محمد العمري يرى أن للتداولية الحديثة بعدا جاحظيا في أساسه، حيث تتجلى جذور الحجاج.

بناء على ما سبق، نؤكد على اهتمام البلاغيين العرب بالنص والخطاب في بعده الحجاجي أيا كان نوعه (قرآني، نثري، شعري) ممارسة منذ جاهليتهم، ثم تنظيرا مع ثلة من البلاغيين الكبار، نذكر

على سبيل المثال: الجاحظ، ابن وهب، الجرجاني، القرطاجني، هذا ما يؤكده منذر عياشي بقوله: "لقد انطلق الباحثون العرب في درسهم اللغوي من النص –تنظيرا وممارسة– فجاءت علومهم في هذا الميدان تمثيلا حضاريا له. وكانت نظرتهم للأسلوب –في جملة تلك العلوم– أنه أثر من آثار النص، ونتيجة من نتائجه الدالة عليه، فأسسوا بذلك بنيان حضارة معرفية يمكن أن نصطلح عليها باسم حضارة النص" (منذر عياشي، ٢٠٠٢، صفحة ٢٨)

المبحث الثالث: مكونات الخطاب الحجاجي في البلاغة العربية

يقوم الحجاج على أربعة عناصر: المتكلم، والمخاطب، والمقام، والملفوظ الذي يتكون من الحجة المؤيدة للدعوة أو الساعية إلى إبطال دعوى الآخر، ثم النتيجة التي يستخلصها المخاطب من كلام المتكلم.

- ✓ المتكلم: لا يمكن الحديث عن عملية حجاجية إلا بوجود المتكلم، فهو العنصر الأساس الذي تقوم عليه، وهو المسؤول عن نجاحها أو فشلها، لهذا حظي باهتمام كبير من طرف البلاغيين العرب واشترطوا توفره على مجموعة من الشروط التي تؤهله لإقناع المتلقي والتأثير فيه، مع مراعاته لسياقات التخاطب ولأحوال المخاطبين ومقاماتهم، مستثمرا في ذلك كل طاقاته وإمكاناته التواصلية اللفظية وغير اللفظية؛ أي: "جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة" (الجاحظ، ٢٠٠٣، صفحة ٧٦). من بين هذه الشروط نجد ما يلي:

١– الكفاءة الإنتاجية: وتشمل على ثلاث كفاءات:

- الكفاءة اللغوية: وتقتضي من المتكلم أن يكون متمكنا من اللغة وعلومها، ومختلف مستوياتها وأساليبها، وأن ينتج الكلام وفق السنن المتفق عليها، مع فصاحة الألفاظ والعبارات، وجدة المعاني والابتكار فيها، مع روعة الصور، حتى يتمكن من إقناع المخاطب والتأثير فيه، يقول العسكري: "فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة، والجزالة، والسهولة، والرصانة، مع السلامة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من حيف التأليف، وبعد عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجّه، والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع" (العسكري، ١٩٨٨، صفحة ٥٧)
- الكفاءة الثقافية.
- الكفاءة النفسية.

٢- الكفاءة الإنجازية: تلعب وضعية وطريقة تقديم المخاطب للخبر دورا مهما في المساهمة في إقناع المتلقي، سواء في صمته أو كلامه وفي لباسه، وطريقة إلقائه للكلام، وما يستثمره من آليات تقنية تواصلية أخرى لفظية أو غير لفظية.

✓ المخاطب: حظي المتلقي باهتمام كبير في البلاغة العربية، لكونه هو المقصود والمستهدف من الفعل الحجاجي، هو الذي يتقصد المتكلم إقناعه وإفهامه، وإيصال المعنى إلى قلبه وعقله، اعتمادا على مجموعة من الأدوات البلاغية والتقنيات الحجاجية، مع مراعاته لحال هذا المخاطب وسياق التخاطب معه، لهذا أشار اللغويون العرب إلى أن المخاطب الذي يلقى إليه الخبر، يكون على حالة من الحالات الثلاثة:

مخاطب خالي الذهن – مخاطب شاك متردد – مخاطب جاحد ومنكر

وعلى المتكلم أن يستعمل من الخطاب ما يوافق الحالة التي يكون عليها المخاطب، فمثلا في الحالة الأولى يلقى الكلام بشكل عاد، لكن في الحالتين الثانية والثالثة، يلزمه توظيف ما يناسب من الآليات والتقنيات الحجاجية التي تدفع الشك والارتياب والجحود عند المخاطب. لهذا، فالبلاغة العربية لم تكن تعتبر النص كلاما يهم المتكلم فقط، بل هي تهتم أساسا بالنص الذي يتوجه إلى الآخرين.

✓ المقام: إن المقام هو العنصري الجوهري الذي قامت عليه البلاغة العربية، ومكون أساسي ضمن مكونات العملية الحجاجية، لهذا جعل البلاغيون العرب لكل مقال مقاما يناسبه ويختص به، يقول السكاكي: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء الاستخبار أو الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب" (السكاكي، ٢٠٠٠، صفحة :٢٥٥)

نفس الأمر، نجده عند أبي هلال العسكري بقوله: "وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالجواب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلا ما يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب' (العسكري، ١٩٨٨، صفحة ٢٩)

لهذا، فالبلاغة العربية قامت على مراعاة المقام، والمعرفة بأحوال المخاطبين ومستوياتهم وتمثلاتهم وانتماءاتهم، وسياقات التواصل التي تستدعي الإيجاز أو الإطناب. والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، أي معرفة الأشياء التي يمكن أن تحرك المخاطب وتؤثر فيه، فلا يمكن للمخاطَب أن يشتغل خارج المقام الخطابي، ولا يمكن أن يكون للقول تأثير وفاعلية ما لم نعرف أقدار المستمعين

وأحوالهم، لأن الحجاج يرتبط أساسا بالمقام. يقول القزويني: "وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال، ومقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين موقف التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها، إلى غير ذلك" (الخطيب القزويني، ٢٠٠٣، صفحة ٩٩).

هذا المقام، يشمل كل السياقات الزمانية والمكانية والاجتماعية والتاريخية ... المتصلة بالفعل الكلامي، وهو ما يسمى عند الغربيين بسياق الحال، يقول تمام حسان: "وحين قال البلاغيون: لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات، لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على السواء، ولم يكن "مالينوفسكي" وه يصوغ مصطلحه الشهير "سياق الحال" Cotext Of Situatoin يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها" (تمام حسان، ١٩٨٢، صفحة ٣٧٢)

هذا ما جعل الجاحظ يولي عناية كبيرة بالمقام، ويتوجه بالنصح للمتكلم بضرورة مراعاته، فألزمه بأن: "يعرف أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على تلك الحالات" (الجاحظ، ٢٠٠٣، صفحة ٩٢) فعلى المتكلم أن يكون على دراية واسعة بأقدار السامعين منازلهم

واستعداداتهم النفسية ومؤهلاتهم المعرفية، وأن يمتلك الآليات والتقنيات التي تساعده على لإقناعهم والتأثير فيهم وإمتاعهم بحيث يخاطب كل سامع بما يفيده ويناسبه.

من خلال ما سبق، يمكن أن نخلص أن الحجاج خطاب يستدعي ويستثمر كل الطاقات الإقناعية لدى المرسِل من أجل الدفاع عن وجهة نظره ليجعل المتلقي يقبلها ويتبناها مما يعني أن الحجاج يقوم على العناصر التالية:

المكون الحجاجي	وظيفته
القضية	عرض الفكرة مع احترام عناصر بنائها، والظروف المناسبة لها.
الأطراف	أطراف التخاطب: المرسل و المتلقي
الحجج	تقديم الأدلة والحجج النقلية والعقلية.
كيفية الإقناع	استخدام الأساليب والتقنيات الحجاجية مع التدرج في عرضها.
النتيجة	قبول المتلقي بفكرة المرسل أو رفضها أو تعديلها

المبحث الرابع: تجليات البعد الحجاجي للمفاهيم والأساليب البلاغية العربية

إن البلاغة العربية بلاغة حجاجية وتواصلية في كل مباحثها، لهذا اهتم البلاغيون والشراح والمفسرون بالأساليب البلاغية في تحليلهم للخطاب وربطوها بمقاصد المتكلم وأغراض الخطاب. لأن اشتغال الحجاج عل مجال المحتمل، يقتضي بالخطاب الحجاجي أن يعضد موقفه بجملة من الأساليب البلاغية التي تظهر المعنى بشكل جلي، يكون أكثر إمتاعا للنفس وإقناعا للفكر، مما يعني أن الأساليب البلاغية تحمل طاقات حجاجية، وتعد من أهم وسائل الإقناع والتأثير في المخاطبين، وأكثر إثارة لمشاعرهم وأخيلتهم، وتوجيه سلوكاتهم نحو الوجهة التي يقصدها المتكلم، "فلما كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد المتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية واللسانية التي تظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس"

(صابر الحباشة، ٢٠٠٨، صفحة ٥٠) لهذا، تعد الوظيفة الحجاجية من أهم وظائف البلاغة العربية، وذلك ما يتجلى جليا في أساليبها البيانية والبديعية وما يرتبط بعلم المعاني من تقديم وتأخير...

أولا: على مستوى علم البيان:

– التشبيه: من أكثر الأساليب البلاغية تأثيرا في نفوس وعقول المخاطبين الذين يميلون إلى الأمور المحسوسة، يأتي به الشاعر أو المتكلم عموما، لتقريب الصورة إلى ذهن المتلقي، ليتسنى له رؤيتها رأي العين، أي أنه يستعمله كوسيلة للاحتجاج، وكلما كانت تلك الصور التشبيهية قريبة إلى فهم وذهن المتلقي ساعد ذلك على إقناعه، فمثلا هناك فرق كبير من ناحية التأثير والإقناع بين قولنا: أنت شجاع، وبين استعمالنا التشبيه أنت كالأسد في الشجاعة.

وقد قسم ابن وهب التشبيه إلى قسمين: (ابن وهب الكاتب، ١٩٦٩، صفحة ١٠٨)

- تشبيه الأشياء في ظواهرها وألوانها، كما شبهوا اللون بالخمر، والقد بالغصن
- تشبيه الأشياء في المعاني، مثل تشبيه الشجاع بالأسد

أما أغراضه فهي؛ خمسة أغراض لها علاقة بالمشبه، وهي:

بيان حاله – بيان مقدار حاله، – بيان إمكان وجوده – تقوية شأنه في نفس السامع وزيادة تقريره عنده، – إبرازه إلى السامع في معرض التزيين أو التقبيح.

– المجاز: يقول طه عبد الرحمان: "لا كلام بغير خطاب، ولا خطاب بغير حجاج... ولا حجاج بغير مجاز، فالمجاز من أساليب المحاجة"، ثم يضيف قائلا: "إن حقيقة الحجاج ليست هي مجرد الدخول في علاقة استدلالية، وإنما الدخول فيها على مقتضى المجاز، بمعنى أن الطي يحجج ماهية

الحجاج هو العلاقة المجازية ليست العلاقة الإستدلالية وحدها فلا حجاج بغير مجاز" (طه عبد الرحمان، ١٩٩٨، صفحة ٢١٣)

وهذا ما يعضده عبد القاهر الجرجاني، على أن للبلاغة بكل علومها وأساليبها، وظائف متعددةً، لا نستطيع أن نحصرها فقط في الجانب الجمالي التزييني، و إنما جعلها تتسع لتشمل الجانب الحجاجي وغيره حيث يقول :"إن كان مدحًا كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف ،وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ،وأقضى له بغُرّ المواهب و المنائح، وأَسْيَر على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر" (الجرجاني، ١٩٩١، صفحة ٩٧)

وإن كان الأسلوب أو الفن البلاغي "ذمًّا كان مسُّهُ أوجع، وميسه ألذع، ووقعه أشد، وحدُّه أحدّ، وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر، وإن كان افتخارًا كان شأوه أبعد، وشرفه أجد، ولسانه ألدّ، وإن كان اعتذارًا كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخل ، وللسخائم أسلّ،ولغرب الغضب أفل، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث" (الجرجاني، ١٩٩١، صفحة ٩٨).

وإن كان هذا الأسلوب البلاغي "وعظًا كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلّي الغياية، ويبصّر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل" (الجرجاني، ١٩٩١، صفحة ٩٩).

ومن هنا نفهم مما ذكره عبد القاهر، بأن القوة الحجاجية للبيان تجعله "وسيلة أساسية من وسائل الإقناع، ولعل في اختلاف مستويات التلقي ما يؤكد هذه الصفة الحجاجية للخطاب البلاغي، وذلك يجعل أي قول مدعم صالحا أو مقبولا بمختلف الوسائل، ومن خلال مختلف الصيغ اللغوية، على

اعتبار أن هذه الصيغ هي أفعال كلام تمارس وظيفة التأثير من خلال قوتها الكلامية، التي تتجلى بدورها من خلال طرائق منطقية في البناء وترابط العلاقات الاستدلالية التي يمثل الحجاج أبرز مظاهرها.

ثانيا: على مستوى علم المعاني:

لقد اهتم البلاغيون العرب، بالطاقة والبعد الحجاجين الموجودين في أساليب علم المعاني، فعلى سبيل المثال نجد الجرجاني عالجه معالجة حجاجية في دلائل الاعجاز. حيث أكد كغيره من البلاغيين أن الحجاج موجود في الأسلوب الخبري بأضربه وأغراضه، والأسلوب الإنشائي بأنواعه (الاستفهام، النداء النهي القصر، الشرط، والتقديم والتأخير...)، فالمحاج مثلا، يقدم عندما يرى أن المخاطب قد تبادر إلى ذهنه شيء أخر غير الذي أراده هو، وكذلك أسلوب الحذف؛ فالبلاغة تكون أكثر نطقا إن لم تنطق، وأتم ذكرا إذا لم تذكر، وأكثر بيانا إذا لم تبن،

أيضا، مراعاة حسن الاختيار بين الإطناب والإيجاز والمساواة بحسب ما تقتضيه سياقات العملية التواصلية، بالإضافة إلى التوكيد، الذي يعدمن الأساليب الحجاجية التي تسهم في تمكين المعنى في النفس وإزالة الشكوك وإماطة الشبهات. ثم الشرط، الذي يعتمد عليه لإقناع المخاطب وإزالة ما به من شك أو تردد، وهي" للشرط في الاستقبال" وأسلوب الاستفهام: من أهم الأساليب الإنشائية التي تحمل طاقة حجاجية تتوخى إقناع المتلقي والتأثير فيه والتفاعل معه، ذهب ابن وهب إلى أن "من الاستفهام ما يكون سؤالا عما لا تعلمه لتعلمه، فيخص باسم الاستفهام، ومنه ما يكون سؤالا عما تعلمه ليقر لك به، فيسمى تقريرا" (ابن وهب الكاتب، ١٩٦٩، صفحة ٩٤)

ثالثا: على مستوى علم البديع:

لقد انتبه النقاد والبلاغين العرب إلى الطاقة الحجاجية التي يمتلكها البديع بكل آلياته وعناصره، فنظروا إليه على أنه ليس للزخرفة والتزيين فقط، ولكن بهدف الإقناع، والبلوغ بالأمر مبلغه الأبعد... والبلاغة العربية مليئة بهذه الصور والإمكانات، ومليئة بالشواهد التي تثبت أن الحجاج من وظائفها الرئيسية.

ونظرا لمنزلته، فقد استعمله العرب بنوعيه الفظي والمعنوي في سائر خطاباتهم، بغرض الصنعة والزخرفة والتزيين، إلى جانب وظيفته الحجاجية الاقناعية. لهذا اهتم به عبد الله بن المعتز وألف كتابه "البديع" الذي جعل فنونه خمسة وهي: الاستعارة، التجنيس، الطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها، وتدخل ضمن الحجج التخييلية، ثم المذهب الكلامي الذي يستعمل في الحجج العقلية.

من خلال ما سبق، نستنتج أن كل الأساليب هي عوامل وروافد هامة للحجاج، بها يبني المتكلم طريقته في الخطاب، اعتمادا على قوة الألفاظ والمعاني والأدلة وجمال الصور، وانسجام التراكيب، وتنوع الأساليب من تكرار ومقابلة ومطابقة ونداء وتعجب وتقديم وتأخير وصور بلاغية، فالشاعر مثلا، مطالب بأن ينظم كلامه اعتمادا على المحاكاة والتخييل، مع إمكانية توظيف تلك الأساليب كآليات للحجاج "فلعله من الطريف بمكان، الإشارة إلى أن الأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة لا جمالية إنشائية (كما هو مطلوب في سياق البلاغة)، بل هي تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية (كما هو مطلوب في الحجاج) ومن هنا يتبين لنا أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية لإنجاز مقاصد حجاجية لإفادة أبعاد تداولية" (صابر الحباشة، ٢٠٠٨، صفحة ٥٠)

بناء على ما سبق نستنتج أن الحجاج يقوم على مستويات وأبعاد:

- المستويات: تنقسم إلى المستوى الأسلوبي: الخبري والانشائي. والبلاغي: تشبيه ومجاز وكناية، والإيقاعي.
- الأبعاد الحجاجية: تكون خارج النص، كالبعد الاجتماعي والتاريخي. أو داخل النص كالنفسي واللغوي.

المبحث الخامس: الحجاج في الشعر العربي

إن القصيدة بكونها خطابا تقتضي بالضرورة وجود مرسل ومتلق. لهذا، لم تقتصر وظيفة الشعر على وظيفة واحدة، وإلا انتفى عنه مفهوم الإبداعية، بل تعددت وظائفه؛ فإلى جانب وظيفته الشعرية الجمالية نجد وظائف أخرى مثل الوظيفة الانفعالية، والإقناعية والتوجيهية...

وإذا ما عدنا إلى تعريفات النقاد القدماء للأدب عموما، وجدنا تعريفهم له يقوم على وظيفتين أساسيتين:

– الوظيفة الجمالية: ما يحدثه الأدب من إطراب ومتعة ولذة ووقع جمالي في المتلقي

– وظيفة تعليمية نفعية: يتجلى في التربية والتوجيه، وحث المتلقي على القيم الفاضلة، والردع عن النقائص. هذا النفع لا يتحقق إلا بالحجاج والإقناع,

إن الخطاب الشعري العربي هو خطاب حجاجي إمتاعي بفضل ما يمتلكه من مقومات تخيلية وتداولية، لهذا ارتبط بمراعاة غاية أو قصد ما، حتى أن اللفظ الدال على إنجاز (إبداع) الشعر العربي يرتبط بالقصدية، حيث سمي الشاعر في النقد العربي بالمقصد، ولعل خير مثال يوضح فكرة بناء الشاعر لنصه وفق مجموعة من المقاصد التي توظف صيغا وأشكالا تعبيرية تخدم المقصد الأساس

الذي من أجله أنشئت القصيدة، هو ذلك النص الجامع المانع لابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء، في قوله:" وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا في ذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي إصغاء الأسماع لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحد أن يخلو من أن يكون مغلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم، حلال أو حرام، فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانحناء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجليل، فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر، ولم يطل فميل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد" (ابن قتيبة، ١٩٦٩، صفحة ٢٠)

يتبين لنا من هذا النص، أن الشاعر المجيد المبدع، هو من يستطيع أن يؤلف ويجمع بين التخاطب داخل النص وخارجه. فأما من حيث الداخل، فإن الشاعر، يهدف في المدح مثلا، إلى الوصول إلى الذات المقصودة بالمدح، حيث يبني الشاعر نصه في شكل سلسلة من الأفعال يفضي أحدها إلى

الآخر وصولا إلى الفعل المقصود من المدح، وهو استدراج الممدوح للمكافأة أو هزه على السماح، نفس الشيء كذلك في الغزل أو الهجاء والرثاء...

أما من حيث الخارج، فيقوم التخاطب على حدس المبدع وفطنته، من خلال فهمه للعلامات الدالة على بلوغه أنه قد استوثق من الإصغاء إليه وأوجب ما عليه من الحقوق، ولبلوغ كل ذلك فهو ملزم بعدم الإطالة لأنها تدخل المستمع في الرتابة والملل، وكذلك عدم القطع المخل الذي يجعل في النفس ظمأ، مما ينتج عنه فقدان العمل الفني قيمته التواصلية .

بناء على ما سبق يرى العديد من الدراسين أن اللغة ممارسة تخاطبية تقوم بين ذوات متكلمة وأخرى مستمعة، ويتم التبادل والتخاطب بينهما عن طريق عبارات هي حصيلة للتواضع الاجتماعي بين المتخاطبين. هذا الإفهام والتواصل بين المخاطبين لا يمكن أن يتم إلا بوجود قدرة تواصلية بينهما تتميز بخاصيتين أساسيتين:

- ✓ أ: أن تكون قدرة شاملة
- ✓ ب: أن تكون قدرة واحدة لا تتجزأ، أي أن القدرة على استعمال اللغة لا تنحصر فقط في معرفة

القواعد النحوية والصرفية والصوتية والتركيبية والدلالية، بل تتعداها إلى ضرورة ضبط قواعد الاستعمال، أي أداء وفهم عبارة لغوية في مواقف تواصلية معينة قصد تحقيق أغراض محددة.

ولهذا ركز اللغويون العرب على أهمية المخاطب /المتكلم في إنجاز الخطاب، ووضعوا له بذلك ضرورة توفره على مجموعة من القدرات، لعل من أبرزها:

– قدرة لسانية: وتعني الفهم العميق والشامل للمدلولات في النفوس بصورة سابقة عن وضع الألفاظ الدالة عليها.

– قدرة لغوية: أي معرفة كل قواعد اللغة وأساليبها.

– قدرة خطابية: أي قدرة المتكلم على إنجاز خطابه وفق متطلبات المقام، وما يطمح إليه من غايات ومقاصد لتحقيقها (الفصاحة والبلاغة).

لهذا يكون لزاما على المتكلم، مراعاة قدرات المخاطب، والأخذ بكل الوسائل والتقنيات التي تمكنه من القدرة على إفهام الآخر. لأن الفهم الجيد يؤسس لعلاقات حوارية تواصلية، والتي تختلف مقاصدها، إما في توجيه المتكلم لإنجاز أفعال ما، أو إقناعه بأفعال وأفكار ما.

إذن فعملية التخاطب في النص الشعري، عملية متشابكة الأطراف، متعددة الأبعاد، مختلفة الأشكال والغايات والمقاصد.

ويمكن أن نستدل على سلطة الشعر على المتلقي، وقدرته على التأثير والإقناع نحو غاية رسمها الشاعر باللغة والصورة والإيقاع، ما أورده الجاحظ بقوله: "ومن قدر الشعر وموقعه في النفع والضرر، أن ليلى بنت النضر بن الحارث بن كلدة لما عرضت على النبي عليه السلام، وهو يطوف بالبيت واستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها، فقال صلى الله عليه وسلم لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته" (الجاحظ، ٢٠٠٣، صفحة ٤٣) فالرسول صلى الله عليه وسلم تأثر، ثم اقتنع بشعر الشاعرة التي أمر النبي بقتل أبيها المذنب، وذلك لما ضمنت شعرها من أساليب حجاجية جعلته يتأثر لحالها.

مثال آخر يحكيه الجاحظ قائلا: "تزوج شيخ من الأعراب جارية من رهطه وطمع أن تلد له غلاما فولدت له جارية فهجرها وهجر منزلها وصار يأوي إلى غير بيتها، فمر بخبائها بعد حول وإذ هي تُرقِّص بُنيّتها منه وهي تقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظَلُّ في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذاك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أُعطينا

فلما سمع الأبيات مرّ الشيخ نحوهما حتى ولج عليهما الخباء وقبّل بُنيتها وقال: ظلمتكما ورب الكعبة" (الجاحظ، ٢٠٠٣، صفحة ٤٧)

فهذه الأشعار، وما حملته من قوة وطاقة حجاجية، مبنية على حجة استنتاجية، في المرأة ما هي ألا تربة لغرس الرجل، جعلت زوجها يستشعر ظلمه لزوجته التي استطاعت أن تستثمر الطاقة الحجاجية للأساليب الإنشائية من استفهام يفيد العتاب، وقسم حصر، وقوة كلمات وفخامتها، مما جعل من شعرها شعرا حجاجيا استدلاليا.

مرتكزات الحجاج في القصيدة

مثال آخر يحكيه الجاحظ قائلا: "تزوج شيخ من الأعراب جارية من رهطه وطمع أن تلد له غلاما فولدت له جارية فهجرها وهجر منزلها وصار يأوي إلى غير بيتها، فمر بخبائها بعد حول وإذ هي تُرقِّص بُنيّتها منه وهي تقول:

نقصد بمرتكزات الحجاج في القصيدة، تلك البنى والعناصر المشكلة للعملية الحجاجية التخاطبية، والتي تهدف إلى التأثير في المخاطب و إثارة اهتمامه، وفي هذا القصيدة يمكن أن نشير الآتي:

١- المتكلم/ الشاعر: ويمثل الذات المنشئة للقول الشعري، وغايتها من إنشاء هذا الخطاب، التأكيد على أنه لا علاقة للمرأة بطبيعة جنس المولود، بل هي تربة تنبت ما غُرس فيها.

٢- المتلقي: الزوج الذي هجر زوجته لأنه ولدت له جارية عوض غلام، ظنا منه أنها المسؤولة عن ذلك.

٣- الرسالة: القول/ بنية لغوية: ويمثل المقطوعة كوحدة جمالية ثقافية تحمل طاقة حجاجية، المقام: القصيدة إفراز موضوعي لطبيعة العلاقة المتوترة بين الجارية، وزوجها الذي هجرها وهجر بيتها بسبب ولادتها لجارية عوض ولد ذكر، وبالتالي، فالمرسل/ الجارية تنسج خطابها من رحم الواقع، وتسعى إلى التأثير في مخاطبها/ زوجها وإقناعه بأنه هو المسؤول عن جنس المولود.

٤- الأساليب الحجاجية: ونقصد بها تلك الآليات والأساليب التي عليها تتأسس العملية التواصلية الحجاجية بين الشاعر والمخاطب، مما يجعل نص القصيدة خطابا تخييليا وحجاجيا.

اللغة التي اعتمدها المخاطب كانت لغة واضحة مفهومة، ومزاوجته بين الخبر والإنشاء، فضلا عن حسن انتقائه لحججه وملائمتها للمقام العام

التدرج في إقناع مخاطبه وفي تقديم الحجج الدينية والواقعية

تنوع الأساليب:

النفي: لا يأتينا

الاستفهام الاستنكاري: ما لأبي حمزة

القسم: تالله

الحصر: إنما نأخذ ما أعطينا.

الصفة: غضبان

– الأفعال التقريرية: وتشمل الأفعال التي تصف الحقائق والوقائع في العالم الخارجي. مثل قوله: لا يأتينا، لا نلد.. فهي أفعال مضارعة منفية للدلالة على الحال والاستقبال

لقد استعان الشاعر بهذه الأفعال لما لها من قوة بلاغية، إخبارية وتأثيرية على المخاطب، من خلال الافتخار بالانتساب إلى الرسول عليه السلام وهجاء الطرف الآخر/المشركين.

الضمائر: علامات لغوية ذات حجاجية من حيث اهتمامها بالعلاقة بين التركيب والسياق الذي تستخدم فيه، فهي ذات ارتباط مباشر بالعملية التبليغية والخطاب، ولعل من أهم الضمائر المرتبطة بالمتكلم/ الشاعر (لا نلد، لا يأتينا..)

إن الغرض من هذه الأساليب هو تثبيت صحة موقف الشاعر والعقيدة التي ينتمي إليها، وإبطال أطروحة الآخر. كما تهدف إلى إثارة المخاطب وتعديل موقفه، فالأساليب ليست مجرد دلالة أو معنى لغوي، إنما هو فعل أدائي تداولي، يرمي إلى إنتاج موقف ما والتأثير في المخاطب.

تظهر القراءة الفاحصة في بنية هذه القصيدة الشعرية أن الشاعر يتبنى موقفا حجاجيا مضادا للخصم. وفي حجاجه يخاطب مخاطبه في ضوء المعارف المشتركة بينهما حتى تكون الرسالة واضحة مفهومة وأكثر تأثيرا وإقناعا. كما أن الشاعر صاغ خطاه الحجاجي على شكل حوار قائم على علاقة بين طرفي الخطاب: متكلم ومخاطب لبيان صدقه فيما يدعيه ويقدمه من حجج

إذا فالحجاج حاضر في الشعر، لكون الشعر خطابا كغيره من الخطابات الأخرى، يروم الفعل والتأثير في المتلقي وإقناعه، بمعنى أن الشعر مجال للتداخل والتكامل بين عنصري الامتاع الحجاج

الخاتمة:

– موضوع الحجاج ليس موضوعا جديدا بل هو قديم قدم الحضارة الإنسانية بدأ مع الحضارات والشعوب القديمة كاليونان والحضارات العربية القديمة، ثم استمر في صدر الإسلام، وتطور أكثر مع تطور العلوم العربية، إلى أن وصل إلى ما وصل إليه في عصرنا الحاضر. فهي نتاج تراكم معرفي إنساني.

– الحجاج هو جزء من صميم وروح البلاغة، أي أن البلاغة حجاج، والحجاج بلاغة، لأن البلاغة هي سعي نحو التأثير في الآخر سواء جماليا أو إقناعيا أو كلامهما، وفي الحجاج يستغل التأثير الجمالي في الإذعان، ويستغل التأثير الإقناعي للإذعان كذلك.

– الحجاج منهج رباني، ذكر في القرآن الكريم، فكل الأنبياء والرسل قد حاججوا أقوامهم، وقدموا الحجج المتنوعة لإثبات نبوتهم وإقناع أقوامهم، ودحض معتقداتهم الخاطئة، مما يعني أن القرآن خطاب حجاجي، والأمر نفسه يصدق على الشعر العربي.

– لكل مقام مقال، هذا جوهر البلاغة العربية، وهو من صميم نظرية الحجاج، لأن المقام من أهم القضايا التي تناولتها البلاغة اليونانية خصوصا أرسطو.

– البلاغة العربية هي بلاغة عامة في شموليتها، حيث جمعت بين الشعر والخطابة، وبين الامتاع والاقناع، والقدرة على دراسة الخطاب أيا كان نوعه في جميع مستوياته: التركيبية والصوتية والدلالية والتداولية. وهذا ما تحقق مع السكاكي حيث البلاغة العامة، والقرطاجني حيث البلاغة هي العلم الكلي.

– وأخيرا أنهي الخاتمة بقول القرطاجني: 'ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها ووضع الألفاظ بإزائها، وفي إحكام مبانيها واقتراناتها ولطف التفاتاتهم وتتميماتهم واستطراداتهم، وحسن مآخذهم ومنازعتهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاؤوا لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية" (القرطاجني، ٢٠٠٧، صفحة ٦٩).

التوصيات:

– نحتاج إلى عمل جمعي نقدم فيه البلاغة والحجاج القديم والحديث في تصور ونظرية متكاملة منفتحة تقوم على التوفيق والتأليف بين النحن والآخر وليس التلفيق وعقدة تفوق الآخر وليس منسوبا إلى جهة دون أخرى.

– العمل على تجاوز الإساءة إلى علم البلاغة من خلال التصور والفهم الاختزاليين لها بكونها مجموعة قواعد ومعايير على منشئ الكلام حفظها والالتزام بها حتى يكون كلامه أكثر إفهاما وإقناعا وتأثيرا وإمتاعا. مما دفع بالعديد من الباحثين إلى اتهام البلاغة العربية باتهامات شتى تعبر عن حكم متسرع وضعف بصيرة وجهل بحقيقة هذا العلم الجليل، هذا للأسف ما أصبحنا نشهده ونسمعه اليوم فهذا يشكك في أصالتها وقيمتها ويعتبرها علما معياريا متجاوزا، وذاك ينعتها بالضعف والجمود، وآخر يعدها مادة متحفية وعلما قديما ماضويا انتهى زمانها وأصبحت من العلوم الهامشية التي لا يضر لدارس أو باحث جهل بها ولا ينفع الاعتماد

عليها ولا بد من إحلال بلاغة جديدة محلها متقدمة متطورة معاصرة ذات صبغة غربية محلًّها بزعمه، فنحن في زمن الحداثة وما بعدها، مما ساهم في نفور الباحثين عنها.

المصادر والمراجع:

١. ابن خلدون .(2009) .المقدمة .بيروت :ط2، دار صادر.

٢. ابن قتيبة الدينبوري. (١٩٦٩). الشعر والشعراء. بيروت – لبنان: دار الثقافة، ط٢.

٣. ابو الحسن اسحاق ابن وهب الكاتب. (١٩٦٩). البرهان في وجوه البيان. القاهرة: مكتبة الشباب.

٤. أبوهلال العسكري .(1988) .الصناعتين .القاهرة :بيروت، لبنان.

٥. تمام, حسان .(1982) .اللغة العربية معناها ومبناها .القاهرة :الهيئة العامة المصرية للكتاب.

٦. حازم القرطاجني. (٢٠٠٧). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ط٤: تح: محمد الحبيب ابن خوجة.

٧. الجاحظ. (٢٠٠٣). البيان والتبيين. صيدا، بيروت: ج١، المكتبة المصرية.

٨. الجرجاني عبد القاهر .(1991) أسرار البلاغة .جدة :دار المدني، ط1.

٩. السكاكي .(2000) .مفتاح العلوم .بيروت، لبنان :دار الكتب العلمية، ط1.

١٠. شوقي ضيف. (١٩٦٥). البلاغة تاريخ وتطور. لبنان: دارالمعارف.

١١. القزويني (٢٠٠٣) . الإيضاح في علوم البلاغة دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

١٢. صابر الحباشة. (٢٠٠٨). التداولية والحجاج مداخل ونصوص. دمشق: عاصمة الثقافة العربية.

١٣. طه عبد الرحمان. (٢٠٠٧). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المغرب: المركزالثقافي البيضاء.

١٤. عبد الرحمان, طه .(1998) .اللسان والميزان أو التكوثر العقلي .المركز الثقافي العربي، ط.1

١٥. محمد العمري. (٢٠١٠). الحجاج مفهومه ومجالاته . إربد الأردن: عالم الكتب الحديث.

١٦. محمد العمري (2012) .البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول .إفرقيا الشرق، ط.2

١٧. منذر عياشي. (٢٠٠٢). الأسلوبية وتحليل الخطاب. مركز الانماء الحضاري، ط١.